الإبداع الفني بين الخير والشر

« رؤية من منظور الأدب الإسلامي »

بقلم : د . محمد السيد الدسوقي*
مصر

تعد علاقة الفن بالوظيفة أو الغاية من الإشكاليات التي دارت حولها حوارات كثيرة في أدبنا القديم والحديث والمعاصر .. ويعد ظهور المذاهب الأدبية في الحقيقة صورا للعلاقة بين الفن وبين وظيفته ، ووجدنا من المبدعين والنقاد من يرى أن يبتعد الفن عن الغاية وأن تكون المتعة الجمالية مقصودة لذاتها . وأن ارتباطه بالغاية يفسد على الفن ماهيته ويجعله أسير الغاية مقيدا غير حر ، حتى صار الفن عندهم « الفن للفن » .

كما أن « إشكالية الفن والأخلاق » هي الأخرى مسألة حازت قدرا كبيرا في فكر المبدعين والنقاد ، وكتبت أبحاث وكتب تجرد الفن من قيود الأخلاق والقيم – على حد قولهم – ويردد الآخرون بأن انتفاء الفن من الأخلاق والقيم عبث لا ينمي في الإنسان القدرة على التذوق بقدر ما يدفعه نحو ما يحط به ويرغبه في الهمجية .

والحقيقة أن هذه الإشكالية تتمحور حول علاقة الإبداع « بالخير والشر » ، وهو موضوع أثير في فكرنا العربي القديم حتى رأينا ناقدا وأديبا كبيرا مثل الجاحظ في البيان والتبيين يتداخل مع هذه القضية حين يحدثنا عن رأي كلثوم بن عمر (العتابي) في البلاغة ، فيقول : « حدثني صديق لي قال : كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ ، فإن أردت اللسان الذي يروق الألسنة ويفوق كل خطيب ، فإظهار ما غمض من الحق وتصوير الباطل في صورة الحق »[1] والفقرة الأخيرة من التعريف السابق تبين النزعة الجدلية التي تجيز تصوير الباطل حقا والحق باطلا ، وتتلاعب بالمنطق والألفاظ .

والجاحظ نفسه في موضع آخر من كتابه السابق يتحرز مما يفسد الفن معنى ولفظا حين يقول : « ومن أراد معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما فإن حق المعنى الشريف هو اللفظ الشريف ومن حقهما أن يصونهما عما يفسدهما ويهجنهما .. »[2] .

أليس الاتجاه بالفن نحو الرذائل والحماقات مما يفسد ويهجن قصدية الفن وغاياته .

ويتعرض النقد العربي القديم لهذه المسألة بصورة أخرى حين يتحدث عن الصدق والكذب وعلاقتهما بالفن الشعري ، فقد رأى بعضهم أن أكذب الشعر أجوده «وهو رأي غير صحيح – وإن كان البعض يرى أن المقصود بالكذب هو الخيال والبعد عن التقريرية في الأداء– نقول: إن حسان بن ثابت يصرح بأن عنصر الصدق في الشعر يجب الانتباه إليه عند الحكم عليه ... فهو القائل :

وإن أشعر بيت أنت قائله
بيت يقال إذا أنشدته صدقا
وإنما الشعر لب المرء يعرضه
على المجالس إن كيسا وإن حمقا

ويقول الرسول ﷺ : « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير له أن يمتلئ شعرا »[3] . وهو يشير بذلك إلى مسألة الخير والشر في قرض الشعر ونظمه ، ويعني ذلك الشعر الذي تحلل في نظمه من القيم والمبادئ الإسلامية ..

وقضية ارتباط الفن وبلوغه حد البلاغة والإبداع بالكذب والشر مغالطة واضحة ، فالرسول الكريم الذي ملك حد البلاغة يستمع إلى الشعراء المسلمين ، ويعجب بفنهم حتى خلع بردته هدية لكعب بن زهير ، ولا شك أن هذه القضية قد ظهرت حول شعراء صدر الإسلام وتحول

* أستاذ مساعد البلاغة العربية في كلية البنات المتوسطة بالنماص - السعودية.

النقاد يستقرئون شعر هذه الطائفة من المخضرمين - بصفة خاصة ، والنظر في التحولات التي لحقت بفنهم الشعري حين قارنوا بين المرحلتين ، يعلق الأصمعي كما يروي صاحب الموشح على هذه الإشكالية حين يقول : «طريق الشعر هو طريق الفحول مثل امرئ القيس وزهير والنابغة من صفات للديار والرحل ، والهجاء والمدح والتشبيب بالنساء وصفة الخمر والخيل والحروب والافتخار فإذا أدخلته في باب الخير لان » [٤] .

وروي عن الأصمعي أيضا قوله : « الشعر نكد لا يقوى إلا في الشر ويسهل، فإذا دخل في الخير ضعف ولان » [٥] ، وذهب إلى أن شعر حسان كان علا في الجاهلية، فلما دخل شعره في باب الخير لان، حتى يقول: « هذا حسان فحل من فحول الشعراء في الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره » [٦] ، وإن كان بعض الباحثين المعاصرين يعلق على قول الأصمعي قائلا : «ولكن ثمة فرق بين اللين والضعف فلعل المقصود باللين الرقة والسهولة نقيض الجزالة والحماسة » [٧] ، نقول: وملاحظة الباحث السابق لا تغير من مقصود ما ذهب إليه الأصمعي .

وإذا كان هذا النقاش قد دار حول الشعر في صدر الإسلام ، فإن كثيرا من الباحثين المعاصرين لا يقرون هذه الآراء التي تربط بين جودة الشعر وإبداعه وبين الدخول في باب الشر والباطل والكذب [٨] .

إن ارتباط الفنية في نظم الشعر بالشر والتحلل من القيم والأخلاق والفضائل مسألة مردود عليها بهذه النماذج الشعرية التي وضح فيها قوة اللفظ وثراء المعنى وفنية الأداء التصويري وإحكام التركيب اللغوي .

وهذا حسان يوم فتح مكة يمدح رسول الله ﷺ ويهجو أبا سفيان بن الحارث [٩]:

عفت ذات الأصابع فالجواء
إلى عذراء منزلها خلاء
عدمنا خيلنا إن لم تروها
تثير النقع موعدها كداء
ينازعن الأعنة مصعدات
على أكتافها الأسل الظماء
تظل جيادنا متمطرات
تلطمهن بالخمر النساء
فإما تعرضوا عنا اعتمرنا
وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لجلاد يوم
يعز الله فيه من يشاء
ألا أبلغ أبا سفيان عني
مغلغلة فقد برح الخفاء

ثم يمضي حسان حتى نهاية القصيدة التي تتسم بقوة المعنى واللفظ معا وتنداح الصور والتراكيب التي لم نر فيها هذه السقطات التي رآها هؤلاء النقاد حين يتحول الشعر نحو الفضيلة والخير ، أليست هذه هي المعايير التي تحدث عنها الجاحظ حين قال : « فليكن لفظك على قدر معناك ...» ولنتأمل كذلك شعر كعب بن مالك الأنصاري وهو من بيت شعر [١٠] :

قضينا من تهامة كل حق
وخيبر ثم أجممنا السيوفا
نخيرها ولو نطقت لقالت
قواطعهن دوسا أو ثقيفا

وقوله يرد على المشركين يوم بدر :

وفينا رسول الله والأوس حوله
له معقل منهم عزيز وناصر
وجمع بني النجار تحت لوائه
يمشون في الماذي والنقع ثائر [١١]

وبعد فإن الاتجاه بالفن نحو القيم الإسلامية وكل ما يرقى بالإنسان نحو حياة أفضل في إطار المنهج الإسلامي لا يمكن - أبدا - أن ينحدر بالفن نحو ضعفه وسقطه ، فالدراسة التطبيقية تنكر ذلك وترفضه .. ■

الهوامش

(١) الجزء الأول ، ص١٣
(٢) السابق ، ١ / ص١٣٥
(٣) صحيح البخاري ، ٨/ ٤٥
(٤) المرزباني ، الموشح ص ٨٥
(٥) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص ٣٠٥
(٦) السابق ، نفس الصفحة
(٧) د محمد الشنطي ، في الأدب العربي القديم ، دار الأندلس ، حائل ، السعودية ، ص١٥٩ .
(٨) د شوقي ضيف العصر الإسلامي ، دار المعارف ، القاهرة ، د ت ، د محمد مصطفى هدارة دراسات في الشعر العربي - تحليل لظواهر أدبية وشعراء ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٨٢ ، د يحيى الجبوري الإسلام والشعر ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٩٦٤ م
(٩) ديوانه ، دار صادر ، بيروت .
(١٠) راجع : د. سامي مكي العاني : كعب بن مالك الأنصاري الشاعر ، دار القلم ، دمشق ، ١٩٧٩م .
(١١) لقد كان الاستشهاد مقتصرا على تلك الفترة «شعراء صدر الإسلام» لأنه هذه الإشكالية قد دارت في نقدنا العربي القديم حول شعر هذه الفترة